شهـــادة مـــن زمـــن المـــوت

سميرة الوردي

الدعوة لحظة الخوف المعاشة هي غيرها المسموعة أو المروية بعد حدوثها وفي مكان وزمان غير مكانها وزمانها اليوم هو التاسع والعشرون من الشهر السادس من عام٢٠٠٤، أصحاب الجريمة المرتكبة ظهروا على شاشات التلفاز كمجرمين مدانين بعد أن كانوا طغاة عاثوا في الأرض فسادا.
حدث في نهاية خريف ١٩٨٥
خرج الجميع ، حافلات هيئت لهذه المناسبة والدعوة عامة للجميع ولا يستثنى منها أحدٌ مهما كانت أعذاره . لم يخبر الجميع عن مكان الدعوة ولا مناسبتها ، فرح الطلاب فانفلتوا بصخبهم وهم يصعدون الحافلات بين نظرات مدرسيهم الساخطة وصمتهم من ثقل الأوامر التي لابد من تنفيذها حتى لو كانت ضدهم .

مازالت الأرض ندية من مطر ليلة أمس فالخريف في آخره، بقايا من حرارة الصيف المنصرم تختلط ببواكير نسيمات الشتاء المقبل لتشعر المرء بديمومة الحياة وقدسيتها . لم أذهب مع الموكب ، ذهبت إلى حمام المدرسة ولم أخرج منه إلا بعد رحيل السيارات واختفاء أصواتها ، دائما ما كنت أتحايل بمثل هذه الطرق كي لا أعرض نفسي لأي مساءلة ، وما أن تنقضي المهام وتعود الأمور إلى سابق عهدها ، يكون اختفاء أحدهم غير ذي بال .
مضى اليوم كغيره من الأيام والرغبة في معرفة الى أين سيق الأولاد لم تكن قوية لدي ، فمثل هذه الأمور تتكرر كثيرا ، فالمدارس مجال رحب للاستعراضات والاحتفالات التي ما إن تنتهي واحدة حتى تبدأ الثانية . ما أن خلت المدرسة من الجميع ولم يبق فيها سوى زقزقة العصافير وحارسها الذي انسحب إلى غرفته، تسللت بهدوء ، وفي ذهني عدة أعذار لو سألني الحارس عن سبب بقائي في المدرسة ، وعدم الذهاب معهم ولكن الأمر سار كما أريد ولم أصادفه .
ذهبت إلى السوق لأشتري بعض الضروريات لاصنع منها وجبة الغداء ، وفي ذهني حفلة الزفاف التي حضرتها لأبن بنت عمتي الثاني فالأول اغتيل في جبهة القتال قبل سنوات وقيل لأهله إنه انتحر بسبب كآبته ، وها هي الحياة تسير مسراها الطبيعي بالرغم من فنون آلامها .حفلة بسيطة وإن بدت لحفلات أخر باهظة الثمن ،فالناس لم تعد لديها الإمكانات المالية لأقامة الولائم الفخمة ، ومن يقم وليمة بسيطة أو حفلة عرس صغيرة يعد ميسور الحال، الطعام لم يكن سوى سندويشة ومعها قطعتا كباب وكبة وخياران مع تفاحة واحدة ، بعد أن كان الناس وبكل فئاتهم يفرشون الموائد ويملأون السفرة بكل أطايب الطعام وما يتبقى منه يوزع على الجيران الذين لم يحضروا العرس وعلى السابلة المارين في الطريق .
حدث في المحلة أمر أنساني المدرسة والحفلة ، خرج الناس متسارعين من داخل بيوتهم على صوت صبي لم يتجاوز الخامسة عشرة يطعن شقيقته في رقبتها والأب يرقب الأحداث من بعيد ، وعندما وصلت الشرطة كانت الفتاة قد لقت حتفها ، ولم يكن أمامها سوى تكبيل الصبي الذي استسلم بهدوء عجيب لمصيره ، أشيع فيما بعد أن الفتاة متزوجة وزوجها في جبهة القتال وقد اختفت عدة أيام من دون علم أهلها وحين عودتها لقيت مصيرها المشؤوم ، مما جعل اللغط يزداد حول سلوكها المشين بالرغم من عدم معرفة الناس بها وبأسرتها .
كان يوما قاسيا كغيره من الأيام المتلئة بالقسوة والضيم .
كان صباح اليوم التالي متوترا والطلاب مصابين بوجوم غير عادي ، فقد انمحت ضحكات اليوم السابق وجلبته .
بدا المدير مهموما محاولا أن يزيح ثقلا عن كاهله ، منتقيا عبارات حذرة يفتح بها كلمته ، كنا نصطف خلفه مدرسين ومدرسات . نوبة من الشفقة انتابتني ما أن استقرت عيناي على الخيوط المهلهلة التي انسابت من أطراف بنطاله ، نبهتني نبرات صوته الحزين لما ينطق به ، لهجة الاعتذار من الطلاب لم أعهدها فيما سبق (لابد أن يكون ما حدث شيء عظيم) . بدأ حديثه بهذه العبارة (لو كنت أعرف التفاصيل لكنت اعتذرت بشتى الأعذار ولم أعرضكم لمثل هذا الموقف ، اهتموا بدراستكم وعسى الله أن يوفقكم ويجنبكم كل مكروه) سار ببطء حاملا سنواته الخمسين وعيناه الحزينتان تكاد تغرقان بدموعهما ، لم أجرؤ وكالعادة السؤال من الزميلات أو الزملاء عما حدث بالأمس ، ولذا تركت الأمر للمصادفه كي تكشفه لي ، كما حدث لزميلنا عارف الذي اختفى في ظروف غامضة وبعد فترة أقيل من عمله وقد قيل همسا انه اعتقل بسبب ميوله التي تتنافى ومبادئ الحزب، كان الأستاذ عارف في الأربعين، أب لاربعة أطفال هادئ يدرس العربية والإسلامية ولم يعرف عنه تطرفا أو ميلاً لأية معارضة، مسالما لا هم له سوى توفير الحياة السليمة لأبنائه ، اختفى من بيننا ولم يجرؤ أي واحد منا بالسؤال عنه. الخوف والحذر يغلفان عواطفنا أو على وجه الدقة جعلنا نخفيها تجنبا لما يحدث .'قسمت دروسه بيننا سدا لما تركه من فراغ وكلنا أسى لما 'يتهامس عن أخباره ومدى تعرضه للمهانة والتعذيب حتى قيل انه قد أعدم لكننا لم نتأكد من الخبر .
صعدت سلم المدرسة وكلي آسى على المدير الذي يبذل كل جهده لتقديم شتى المساعدات حتى لو كانت خارج حدود طاقته ،وعلى نفسي التي تجذر الخوف فيها وكأني ارتكبت جرائم العالم كلها ، متى سيزول الطغيان ليمحو الكابوس المستفحل؟
دخلت الصف وكلي أمل أن يزيل الدرس ما حل في نفسي من أسى وإذا بالصف على غير عهده .
: اخرجوا كتبكم ؟
لارغبة لنا في الدرس . انبرى عبد الوهاب وكان من أذكى الطلاب وأكثرهم حيوية ، لم يأت بدرجات عالية إلا في درسي وكثيرا ما كنت أعاتبه وانصحه أن يهتم ببقية الدروس، يطأطئ رأسه لاقيا اللوم على الظروف القاسية بعد موت والده، أواسيه وأناديه بلقب مطرب العرب :
نرجوك أن تسامحنا في هذا الدرس . انبرى يتحدث بسرعة كبيرة وكأنه يريد أن يقول ما عنده مرة واحدة ولا يشاركه أحد ، قبل أن استوعب حديثه انقسم الصف قسمين ، الأغلبية مؤيدة له والقلة ضده تحاول إسكاته، طلبت من الجميع السكوت ، اخترق ضجيج الطلاب خفق أجنحة سنونو صغير باحثا في زوايا الصف عن مكان فقده ، انبريت أحدثهم عن سنونو جميل كان يبني عشه في زوايا السقف عندما كنت في العاشرة من عمري . متيحة لعبد الوهاب الفرصة أن يستجمع بها أفكاره ويحدثني عما جرى لهم في اليوم السابق . ،ولم يكن أحد من أهل الدار يجرؤ أن يزيل عشه أثناء هجرته الصيفية كان يأتي شتاء وما أن ينتهي الربيع حتى يكون قد رحل ثانية ، وفي عام من الأعوام قرر والداي طلاء الجدران فاضطرا لإزالة العش ومنذ ذلك اليوم لم يعد السنونو إلى غرفتي. صمت مطبق وانتباه عال من الطلاب للحكاية ،طلبت منهم أن يعدوا موضوعا إنشائيا عن السنونو وعن بقية الطيور، سمحت لعبد الوهاب أن يحدثني عما حصل في اليوم السابق بصوت خافت ، أحنيت رأسي ووضعت اذني قرب فمه، اتسعت عيناه وتقلصت يداه محاولا أن يستعيد ما حدث بكل دقة: ست أعدموه أمام أمه ، فاجأتني العبارة، انسحبت لاشعوريا خطوة متسائلة ، من هو ؟ الجندي . تساءلت مستغربة، الجندي؟ انفتح صوته قليلا وكأن جزءا من الهم انزاح عنه . نعم . أخذونا إلى ساحة واسعة كدست بآلاف الطلاب والمدرسين وصفونا حسب أطوالنا وأمرونا بالصمت والتزام الهدوء ومن لا يستجب يعرض نفسه للمساءلة الحزبية ، حزبيون مدججون بالسلاح يحيطون بنا ، صمت وخوف غريب لفنا ، لو سقطت إبرة لسمع صوتها . لا يخرق هذا الصمت سوى همهمة هنا أو هناك سرعان ما يخرسها حزبي واقف هنا أو هناك .
شق الزحمة بوق سيارة (البيكب) وسيارة صغيرة تتبعها . انزل شاب صغير من البيكب بالقوة فقد ارتمى بحوض السيارة وتمسك بها ، قيدت يداه ورجلاه بسلاسل، يبكي بحرقة، وانزل رجل وامرأة في أواسط العمر من السيارة الصغيرة، انهارت المرأة على الأرض وركعت عند أول قدم صادفتها .
انتباه، علا صوت مكبرات للصوت شدت على نخلات مطلات على الساحة ، هذا هو الخائن والويل لمن يحذو حذوه ، الآن سينال ثمن خيانته وتهربه من العسكرية . الجميع أصيب بالهلع ، علت بضع زغردات من بعض المحتشدين لكنها لم تغط أنين الأم ونظرات الأب التائهة في وجوه المحتشدين وقد اعتلته صفرة الموت.
لا يدري ما يفعل ، اندفع باتجاه ولده لكن الأيادي القوية صدته وحالت بينه وبين الوصول ، حفرت الأم التراب بيديها ورفعت حفنة منه على رأسها ، وانشبت أظفارها على خديها فسال دمها مختلطا بالتراب ، أما الشاب فقد بدا صبيا صغيراً لا يملك سوى الاستسلام ، ،سار بهدوء عجيب بين جلاديه، شد على عمود خشبي هييء لهذه الغاية ،ولم نشعر إلا بجسده ينتفض، اندفعت من بين الحشود مجموعة مسلحة تجاوزت العشرين ، خرج من بينهم واحد تلا حكم الإعدام . علت زخات الرصاص بانتهاء آخر كلمة وسط وجوم الواقفين وزغاريد آخرين .
بغداد/ الدورة شتاء عام

قصة قصيرة

شاطئ بعطر الليمون

قصي البياتي

عند كل صباح، وقبالة النهر، تكون جانيت بعينيها العسليتين وقلبها المرهف وهي تعوم بنظرات متراقصة، حيث الامواج والنوارس، وعندما تكون هناك ومع بقايا الروح الهادئة المبحرة في الاجساد الغضة، لم يعد للناس والبنايات وحتى ضجيج المكائن الهادر، أي وجود، كأنها بمنأى عن ذلك تماماً.
كانت جانيت، وهي تودع سرب الطيور، تبتسم، وترمي بتنهيدة تطلقها للريح وهي بهذا المكان مسرورة جداً.
تلك البنايات الصغيرة والكبيرة المؤسسة لتوليد الكهرباء وجودها قرب النهر شيء يذكر.
انها وحيدة اليوم، لم تعد لتلك الانامل وجود، التي كانت تمسد شعرها المطرز (بالميش) والذي كان يضفي على بهاء حسنها جمالاً، فبدت تشعر بهمس بعض العمال من بعيد دون ان تراهم، هذا ما اكدته زميلة لها يوماً، وهم يشيرون باصابعهم نحوها ويقولون انظر هاهي اليوم مع صديقها الشاطئ وهي تفضل الشاطئ الذي تلجأ اليه على تلك الوجوه النكرة صاحبة الاجساد الميتة.
فبدأ جسدها يرتعش ومعالم وجهها تتغير كشمس ساعة الغروب عندما توذع المدينة، فألوان الاماكن لم يعد لها البريق نفسه، لو كان فاتن قلبها قريبا منها، لما تفجرت ارتعاشة هزت جسدها كلياً، في لحظة ما، وهي مطأطأة الرأس، تحث الخطى صوب مكان عملها، دار في فلكها شيء من همس رتيب وتذكرت رسالته الاخيرة، وما فعلته بها، التي انصرفت اعوام اربع عليها وقالت:-
-شيطان لذيذ!!
وتساءلت راجية الا يكفي انك تشاطرني حياتي؟
انه الشيطان الذي شاءت الصدفة، ان تلتقيه، هناك قرب حوض تصفية المياه الخارجة الى افران التحميض، في رحاب شجرة الكالبتوس، كان هذا عندما طلبت من احد عمالها المتكاسلين ان يباشر بالعمل وحين رفض بدون سبب معلن، الحت بصبر منفد، وبحركة مغمورة هوت كفه الغليظة على خدها المتورد، لم تكن بهذه السهولة ان تضرب جانيت فكان الاجدر بهذا العامل ان يكون رابط الجأش، فانهمرت دموعها بغزارة، كحبات المطر المتساقط على النوافذ ليعلن الضجيج؟ عندها مادت الارض بها وتنسمت رائحة بعطر الليمون، رائحة (الدون جوان) وهو يمرر منديلة على خديها واحيانا على شفتيها.
في الاعوام التي خلت، وبعد ان اعفي من منصبه وانتقال خدماته الى مكان في شمال البلد، في ذلك الوقت تماماً، بدأت جانيت تناجي، نجمة الصباح، على ان يكون يومها الجديد مطرزاً بالازهار والرياحين، هي تود ذلك لعلها تسمع مكبر الصوت، وهو يصدح بكلمات طال انتظارها.
(يرجى من المهندسة جانيت الحضور الى مكتب تسلم الرسائل).
من على جدار الروح، بقايا رنين لنغمات مرحة، فهو الذي داعبها يوماً وقال:
-الاتريدين ياعزيزتي لمس المستقبل؟!
-بلا.. وكيف؟
-عندما تلامس يداك، وكأنك تصافحين، شاطئ النهر المتلألئ هذا، فقط اغمضي عينيك، وستجدين، بحار العالم كلها شاخصة امامك.
-ان ارى الدانوب مثلاً؟!
-وليكن الدانوب.
-وحتى ماء القمر؟!!
-وحتى ماء القمر.
-لاتكن سخيفاً باستكشافاتك ياعزيزي.
-المذهل ياحبيبتي، هو عندما يفكر القلب بشيء وهو الكائن الصغير ولايمتثل الى ذلك الجسد.
مع تقادم الامواج، وكلما مرت امامها الذكريات، مازال ينزف، الجرح الذي احدثه غيابه عنها، لاشيء في هذا العالم يمنحها السعادة، فلماذا نحب سؤالاً غامضاً توقفت عنده ولم تجد سبيلاً للاجابة عليه، هي ليست من النوع الذي ينسى لو كان للنسيان قمة لبلغتها، منهية بذلك علاقة حميمة، بالامس ارادت ان تسلي نفسها كما في السابق، فجربت ان تمارس لعبتها المفضلة، الغريمان احدهما يعرف الاخر كان المضرب بيدها يرتجف، كأنها اول مرة تستخدمه والكرة الصغيرة في اليد الأخرى ضربتها بالاتجاه المقابل الا ان الكرة لن تعود لانه مات.

مملكة الجنون

علاء الهويجل

الى كل المجانين
الابرياء من الحضارة
غدا سنحتفل
ونكتب التاريخ من جديد
ونرفع البشارة
ونجمع الطيور كلها
ونعلن الامارة
ونستبيح مقعدين عنوة
من تاجر العتيق في قريتنا
ونصنع السور من الزهور
لا نصنع السور من الحجارة
حبيبتي
سأكتفي بانك أميرتي
وان اشتباه المجانين رعيتي
ولتسقط الحضارة

قصائد

فرات صالح

١- سيدة
سيدة من رخام دافئ
ونبيذ
على شفتيها ينام المغني
جريحاً
تحت أقدامها ترقص
الارصفة
حين التقينا
تدفقت في دمنا الخيول!

٢- القرد الاخير
على حافة الكون
استلقي عارياً
أدعو النساء الى وليمة
الجسد
قبل ان يصل الاحفاد
مدججين باحقادهم

٣- نكتة
ابن الكنغر
يطلي غرفته
ثم يدعوني الى وليمة
فيها
لعلي أنسى فعلة ابيه
الشائنة!

بلاغة الغموض في النص الشعري

عبد الرضا جباره

بعد ان أصبحت القصيدة المعاصرة ذات كيان متكامل نسبياً وبعد ان تخطت مراحل في تحقيق خصوصيتها ومفردتاتها، نجد ان النقد يُوفر لها قدراً مهماً من التحليل والدراسة. ووصل الى نتيجة وهي ان القصيدة المعاصرة لاتعبر بحال عما يعتمل في دواخلهم- أي الشعراء- ويفيض به وجدانهم- فهي أجترار فقط لما انتجه الاقدمون، ولأجل ذلك نجد أن أغلب النماذج الجديدة لاتتجاوب مع كثير من المثقفين ولا تتفاعل مع الحياة الا بمقدار ضئيل، لما يعوزها من تكامل، ولما يعتريها من نشوز نتيجة جنوح اصحابها الى الضرب في تيه الاسطورة وصحراء الرمزية والغموض والى الخلط بين القليل مما استوعبوه من الاخرين .. وبين تلك الظلال الخفيفة من عواطف القدماء، لقد أصر بعض الشعراء الجدد على البروز بشعر أصبح غاية في الغموض وضربوا في متاهات البحث عن المصطلح وأستخدموا الحركة الفكرية في أشعارهم وعادوا الى المضامين الانتروبولوجية للرموز، وأقاموا هيكل تحررهم من المنطلق السلبي الذي أنطلق منه الشاعر (اليوت) فأصبحت أتباعيته الممثلة في نزوعه نحو التراث المسيحي منطلقا لتحررهم، فهم أذن (توابع) تدور حول ماخلفه هذا الشاعر وبهذا أصبح ابتكارهم عند بعض النقاد.. ادعاءً. مستندين بذلك الى ماذكرته —نازك الملائكه- ان (الشعر المعاصر سيتوقف). ويبقى بعد هذا ان كثيراً من القصائد تتسم بنوع من الغموض. ان لم نقل الابهام وأعتقد أن هذه المسألة ليست عدولاً متعمداً من الشاعر كي يفرض علينا هذا الغموض كما انه لا يمكن ان يكون رغبة ذاتية لأغاظة المتلقي بوضعه في إطار من الطلاسم والرموز. والرأي الراجح ان هذا المبنى اللغوي الذي يعتمده الشاعر ليس الا خاصية ينفرد بها عن غيره كما يتوفق فيها ويتفوق فقضية الغموض ليست مطروحة فقط بالنسبة للشعر العراقي أو العربي بشكل عام بل بالنسبة للشعر العالمي. وهذه مرحلة حضارية اكثر مما هي اتجاه شكلي كما يدعي بعض المتزمتين فالتجربة اساسية في الشعر حتى لو جاءت متخيلة، فمن الطبيعي ان التحولات الثقافية التي تشكل أرضية ثقافية مخالفة لما كان عليه الوضع في السابق هي مرتبطة اساساً بمجمل التحولات التي تصاحب أفراز الوعي الجديد. ولقد برهنت الكتابات والنقاشات النقدية على ان الوعي بالظاهرة الشعرية المعاصرة يتجه يوماً بعد يوم نحو التصدي لشمولية التجربة، بناءً على هذا المنطلق، أقول ان بلاغة الغموض لابد ان تطرح بشكل يرقى الى مستوى أدراك ظاهرة النص الشعري المعاصر ككل في تجاوبها مع قيم فنية وفرتها شروط حضارية واجتماعية وثقافية وللوصول الى كشف أهمية هذه الظاهرة وللمستويات التي طرحت بها لابد ان أتطرق لبعض الاسرار اللغوية التي يتم خلالها حدوث بلاغة الغموض وسأبدأ ولو بشكل مقتضب ان ابين بعض القوانين اللغوية التي يعتمدها الشاعر في تحويل مجرى اللغة النثرية ليدخلها في مجال الشعر، فنحن بغير هذه الخطوة لن نستطيع ادراك كل التحولات الحاصلة في كتابة النص الشعري المعاصر، وندرك بالتالي الخصائص البلاغية التي تتوفر عليها هذه الكتابة ومن هنا تبرز أهمية الخاصية اللغوية للنص الادبي، باعتباره نتاجاً لغويا قبل كل شيء، وباعتبار اللغة التي كتب بها منفذاً أساسياً لفتح المحاور الرئيسة المؤدية، بعد ادماجها في بنية خارجية للقبض على نواة النص حسب تفسير- تروتسكي- ان بلاغة الغموض ناتجة عن انفجار لغة النص وخروجها على القوانين المقيدة للغة اليومية العادية ومن الثابت ان اللغة الادبية تتعارض مع لغة التواصل والأستهلاك في المجتمع ولغة البحث العلمي والفكري أيضا. ان اللغة العادية النثرية تخضع أدلتها لقوانين عامة تتحكم في أساليب النطق والكتابة المستعملة في علاقات الناس الاجتماعية واتفاقنا في أستعمال هذه القوانين هو الذي يحدث التواصل بيننا، كأفراد منتمين لمجتمع من المجتمعات، ولغة الشعر مع كل هذه المعطيات تخط مساحتها الاليفه بانفصالها عن محيط لغة الاستهلاك، ومباشرة الدخول في فضائها المستقل، انها اللغة التي تفلت من مدار التعقيدات اللغوية العامة وتنسلخ عن مواضعات الناس في منطوقهم الاعتيادي المشدود بالقواعد المتعارف عليها حيث تكف عن متابعة ماهو عام في عملية التواصل كأساس للعلاقة الاجتماعية بين الافراد، ومن ثم فان الكلام الشعري، كما يقول موريس بلانشو لايتعارض مع الحديث العادي فقط، ولكنه يتعارض مع حديث الفكر أيضاو في هذه الحالة ينسحب الكلام العام لينفجر الكلام الشعري، وتغيب الجماعة ليحل الصوت المفرد. تغادر الأدلة ارتباطها بالعلاقات المألوفة لتستقل بنفسها وتنهض لتولد عالما موازيا لحياتنا اليومية ومناخا يتحول فيه اللامرئي الى مرئي، والبسيط الى مركب والمبتذل الى إعجاز، وليس الشعر هنا هو التعبير عن عالم غير اعتيادي ولكنه التعبير غير الاعتيادي عن عالم معتاد، هذا المفهوم الشعري يعطي امكانية لانهائية للتجربة الشعرية، ويفارق المفهوم التقليدي الذي كان ولايزال يحصر مجالات الشعر في قوالب وخانات جامدة، وقد دفعت الوضعية الراهنة للشعر، ككتابة اكبر النقاد الغربيين للمتاهة في جحيم خفي، مما فرض عليهم، في احيان كثيرة، العجز عن الوُصول لتعقيد نهائي لهذه الظاهرة اللغوية الابداعية.. ان السبب في انفصام العلاقة بين المبدع والمتلقي هو ان هزات عديدة حدثت في قوانين الكلام الشعري المألوفة عند الناس من خلال تركيب قوانين جديده لاعلاقة لهم بها في الشعر السائد أو المسيطر على الذوق الأدبي في مرحلة من مراحل تطور الكلام الشعري، ومن ثم فان ظاهرة الغموض ليست مستحدثة، ولكن تغيير قوانين بلاغة النص الشعري المعاصر هو الذي نبه الناس اليها، حيث تعرض الشعر العربي المعاصر لهذه متكاملة تشمل محيطه العام، ومن ثم فان الغموض ليس انتقال نوعي من قوانين شعرية الى قوانين أخرى لا يلبث معها ان يتحول الى شيء مألوف مع توفر شروط معقدة أدبية، وأجتماعية وتاريخية.

المصادر
١-نازك الملائكة، شجرة القمر ص١٦
٢-آفة التعقيد في الشعر الجديد لـ حسن الطربيق ص٥
٣- اللغة العربية معناها ومبناها- د.تمام حسان ص١١١

حول ملحمة كلكامش والقراءة الناقصة

رد على مقال

سهى محمد حسن

في العدد ١٤٣ من صحيفة المشرق الصادر يوم الخميس الموافق ١٧/ ٦/ ٢٠٠٤ وفي صفحة ذاكرة عراقية، ووافق ذلك اليوم نفسه تفجير مركز تطوع مطار المثنى الفاجع والمأساوي قرأت مقالة اكثر تفجيراً في جانبها الفكري لكاتب عراقي هو (أحمد كامل قادر) تحت عنوان السومريون (اقوام استوطنت العراق..) ومع اني لست آثارية او عالمة بالمسماريات وبالالواح الطينية ولكني اقول يكفنا الخراب الذي تعرضت له آثارنا وعمليات مسح الذاكرة بنهب المتحف العراقي و مركز الفنون؟ وحرق مكتبه الناصرية؟ حتى تأتي الان قضية مسح الذاكرة كتابياً في عملية تجهيل او إسهام سواء عن قصد ام عن غير قصد فيها لا أدعي العلم رغم قراءتي كتب اثار وتاريخ وتراجم لملحمة كلكماش الخالدة شأنها شأن ملحمة ايتانا الذي رأى العالم.. بعد ان حمله النسر فرأى الكرة الارضية كالسلة ثم ككرة صغيرة ثم اختفت كما وصف ذلك (فان دونكان) في كتابه (عربات الالهة) وسرقها أنيس منصور في كتابه المعنون (الذين هبطوا من السماء) وباسمه، وذكر دونكان السويسري ان ايتانا كان كمن في مركبة فضائية لدقة الوصف الملحمي، فمن هم السومريون؟.
لقد ورد في المقان المذكور ان السومريين هم الذين استوطنوا العراق فالكل مشغول بأصلهم لماذا؟ الا ان ماحققوه يعتبر فجر الحضارات؟ وان كانوا ساميين او قفقازاً او آريين أو من عمان كما ذكر الدكتور بهنام أبو الصوف في احدى محاضراته او انهم من بقايا طوفان نوح السومري الاصل. وحتى ان هناك من يقول ان اتلانتس او القارة المفقودة لأفلاطون هي الخليج او المحيط الهندي ويذكر البعض ان المهابهارتا الملحمة الهندية كدليل على ذلك وان القارة ليست غارقة في البحر الابيض المتوسط، ويحاول حتى اليابانيون ارجاع اصولهم الى السومريين كـ(الأمير ميكاسا) نعم لقد جاءت اقوام سميت بالسامية فكلها تسميات حول الاعراق البشرية من سامية او ارية او قفقازية، اذ ان تلك من الاسطورة البشرية، فبعد انهيار سد مأرب نزحت أقوام من الجزيرة واليمن بالذات كالبابليين والاشوريين والاكديين وغيرهم وزحفت عابرة الفرات وتصارعت مع دويلات مدن الجنوب واخذت عنهم وكان لوادي ما بين النهرين صراعاته فالعثور على اسطورة كلكامش كان في مكتبة اشور بانيبال في الموصل والموجودة حاليا في سراديب المتحف البريطاني للدراسة غير المكتملة، أما المرحوم د. جواد علي فقد سمى العرب القدامى بالعاربة والعرب الذين لحقوهم بالمستعربة، انها تسميات اجتهادية ولكل رأيه.. لقد نظر حول سومر العديدون ولكن المهم في الاسطورة انها تدور حول صراع الانسان الابدي من اجل الخلود، انها اسطورة حول بناة دويلات المدن ضد الصيادين او الرعاة امثال انكيدو! انها قصة الاستيطان البشري وان كلكامش هو رمز لدويلة المدينة اوروك او غيرها من مدن الجنوب كأور وماذا يهمنا من هو أبو كلكامش؟ اذ لاأرى ذلك انتقاصا من قدره! هل يمكن ان تذكر لي والد النبي موسى عليه السلام الذي ربته اسيا زوجة فرعون بعد ان وجدته في سلة في النيل؟ (قصص القرأن) ام تذكر لي اسم والد حمورابي وهو أيضا صاحب الاتجاهات الاربع وكان محارباً ومنتهجا لاول شريعة في القانون وقصة سرجون الاكدى حيث ذكر التاريخ انهم وجدوه في قفة قار ورباه الملك وكان ذلك قبل قصة النبي موسى بألف ونيف عام! فلنقرأ التاريخ قبل ان نكتب، وان لانساهم في عملية التجهيل، لان الجيل الجديد يبحث عن هوية فنحن اصبحنا بلا ذاكرة جماعية كما يقول الدكتور يونغ وان اصبحنا بلا ذاكرة تاريخية فسنعود الى نقطة البدء واقول الصفر..
ان حضارتنا الطينية الجنوبية والواح الطين حفظت للبشرية ذاكرتها ففي الرياضيات مثلاً وجدوا لوحاً طينياً حول المثلث المتساوي الاضلاع وحل المسألة الرياضية في تل حرمل (تل محمد سابقاً) قبل فيثاغورس بألف عام أو اكثر أي قبل غزو الاسكندر المقدوني للعراق وعودة جنوده الارغونوت من أربيلا أي الارض الجديدة باللغة الاغريقية الى اليونان وكانوا عشرة الاف محارب ويقال ان التسمية هي اربعة ايلو السومرية او الإله أيل.
وتدرس النظرية الان باسم فيثاغورس في العالم.. لا باسم العراقيين وقدم العراقيون في الفلك والتنجيم والسحر البابلي واخذ عنهم قدامى المصريين واليهود، وهذا ليس من عندياتي بل في كتب اثاريين غربيين من بلجيك وفرنسيين والمان وانكليز، ان مانملكه ارث انساني فلماذا هذه المازوخية الفكرية وطمس المعالم؟ فان كان العراق قد مر في عصور طغيان وتسلط فهذا هو حال البشرية وجميع الامم بلا استثناء أما ان نكون انتقائيين في التاريخ ونعيد كتابته كما في عهد الطاغية صدام هذا الامر مؤسف جداً.
لنتحدث عن الطغاة حتى وان كان كلكامش منهم فيجب ان لاندافع عنهم مهما كانت منزلتهم التاريخية وهذا هو منطق تاريخ البشرية وماذا عن الفراعنة الذين كانوا آلهة على الأرض ألم يكونوا طغاة؟ وماذا عن الازتك او الهة الشمس ألم يكونوا طغاة؟ والاباطرة الرومان هل كانوا فلاسفة افلاطونيين؟ ككاليكو لا ونيرون فلماذا نحن المدانون فقط؟!
تقول ان السومريين ألهوا الهة الخصوبة واقول ان سبب ذلك لان المرأة بالنسبة للشعوب البدائية كانت سراً غامضاً في عملية الحمل والولادة اذ لم يعوا تكوين الحياة وأحيطت المرأة بغموض بدائي مما جعلها الهة الجنوب العراقي، انه رد مقتضب اذ لاأريد الدخول في جدال عقيم.
ذكرت في مقالتك الاخيرة عن وجود ١٣٠ موسيقياً يعزفون الى كلكامش وان كان ذلك ألايكونون فرقة سمفونية بمفاهيم العصر الحديث؟ حتى فرقتنا الان لاتضم هذا العدد من العازفين.
ان الموسيقى لغة عالمية، وماذا عن القيثارة السومرية لماذا لم تذكرها؟ وماذا عن نشوء الموسيقى الكلاسيكية الغربية في عصور الاقطاع الاوروبي هل كان الاقطاع الغربي عادلاً؟
انني اتمنى ان ينقب من يكتب في التاريخ، أما أن نعتمد على كسرة طينية واحدة من أسطورة ملحمية لم تكتمل بعد فهذا أمر غير علمي خاصة ان جاء بلا تحليل، وللعلم فان الالهة اورور السومرية أي أورورا عند الاغريق تعني الفجر ونحن فجر الحضارات، أما الاقوام التي استوطنت العراق فنحن جسر الفتوحات منذ أقدم العصور فالعراق أو أوروك كان جسراً بين الشرق والغرب والشمال والجنوب وحتى البحر بغزوات متعاقبة وبوسعي ان اعدد لك خمسين قوماً من أقوام غزت العراق وأعطت وأخذت؟! وأتمنى ان لانكتب بشكل عشوائي كما في عهد صدام فتكفينا معاناتنا منذ مايربو على عقدين ونصف من الزمان ومنذ قرون عديدة مظلمة سبقت ذلك. اذ انك اردت الربط بين حادثين كما فعل صدام.
ان ماكتبته أنا أيضا هو من الذاكرة العراقية، حسب البشرية هذا السبي الحضاري؟! فكل يطلب صيدا.. فالسبي الفكري حدث من سومر وغيرها وحدث في التاريخ من نزوحات بشرية.
ان مادفعني الى هذا الرد هو محاولتك تصوير كلكامش كطاغية وتربط ماضيا سحيقا بحاضر مأساوي عانى من الطغيان والربط غير وارد على الاطلاق، ولا أريد ان أضيف من عمليات الربط هذه فالكل يعرف ماأعنيه، اذ ان سومر حضرت البداوة ولم تنقل البداوة الى المدن المتحضرة.